بقلم : محمد وفيق حسن

نحن فى شارع ، والشارع واسع، مرصوف بالقطران ، والقطران لونه أسود ... ولكن فى وسطه شريطين يلمعان لونهما فضى . الشريطان ممتدان ومتوازيان ، انهما قضيبا ترام ، وعليهما يسير الترام ، ولكن هذا الترام محصور بين هذين القضيبين ومقيد من أعلى بسلك رفيع يمده بالكهرباء .

الترام يسير ، السائق يدير مفتاح القيادة فيطوى وراءه ما قطعه من مسافات وفجأة تخرج عربة ، من شارع جانبى، يجرها حصان . العربة مسرعة والترام أسرع منها ، فيتقابلان وتكاد العربة أن تصدم بالترام ويحدث الضرر ، فيمسك السائق مفتاح القيادة بسرعة خاطفة ، فيقف الترام ويهتز الناس داخل الترام فى جميع الاتجاهات . الناس فى هرج ومرج ... فزع .. خوف ، أسئلة ، أعصاب كلها ثائرة فى داخل الترام عما حدث . ويطمئن الرجال السيدات بأن الحادثة سليمة والحمد لله ، ولكن الحصان ما زال يجول ويصول فرحا بقوته وصولته كأنه يطامن من كبرياء الترام وسائق الترام .

ولكن السائق كان قد انفعل وخرج عن شعوره فان هذا الحصان ـ فى رأيه ـ كان من الممكن أن يخرب بيته ويودى بحياة الناس الآخرين . فنزل دون أن يعى محاولا فى عصبية أن يضرب الحوذى ، ولكن الحوذى كما هو لا يتحرك ... والسائق منفعل . الحوذى فى حجم السائق مرتين ! اذن لن يجدى الشجار معه !؟ ... هذا ما يعرفه السائق جيدا . فقد ثار مرة قبل ذلك على عربجى وكان هذا الآخر بليد الشعور ، فأمسك به وضربه فى رأسه محاولا بطحه فانبطح هو ، والعربجى كان ما يزال يضحك . تذكر هذا جيدا ... فرجعت الكياسة الى عقله مرة أخرى ورجع الى الوراء قليلا ، كمن يحتمى بالناس ، وأخذ يسب الحوذى بكلمات جارحة والناس تؤيده فالحوذى « محقوق » ، ولكن الحوذى لا يرد ، بل يبتسم وينظر الى الرجل من فوق لتحت فهو فى حجمه مرتين .

وازداد السائق فى تقريعه للحوذى فرد عليه الآخر ساخرا :

ـ من أنت وترامك ؟ ... هذا عنتر ـ وعنتر هو اسم الحصان ـ عنتر المغوار ... أبو الفوارس ... هل تستطيع أنت وترامك أن تسبقه ؟

فاحتقن وجه السائق مرة أخرى بهذا التحدى العلنى ، بعد أن كان لسانه الزلف قد ساعده فى كسب الجولة ضد الحوذى وفى اثبات رجولته وقدرته . ولكنه حاول أن يسخر منه مرة أخرى قائلا :

ـ يا أخى تسابق مع جدى أو ماعز أحسن لك .

فضحك ركاب الترام جميعا وأشاروا الى الحوذى بأن يتوكل على الله وأشتد فرح السائق ، فقد أثبت أن دمه خفيف أيضا .

ولكن الحوذى لم يتوكل على الله ... ولم يمسك بالسائق ليفترسه مع أن هذا كان فى استطاعته بكل سهولة ، ولكنه نظر الى الناس ثم الى السائق .. ووضع يده فى سترته وأخرج منها ورقة بعشرة جنيهات ـ وفى السر كانت هى كل ما يملك ـ ... ثم أشار بها نحو السائق والناس قائلا :

ـ انت كلامك لا يعجبنى وشكلك أيضا : هذه عشرة جنيهات لك مقابل لا شىء ان استطعت بترامك أن تسبق عنتر ، وأظن يا حضرة السائق أن كلامى واضح ... فهل عندك الاستعداد لأن تكسب عشرة جنيهات مقابل لا شىء ؟ ... وأحمر وجه السائق وأحس بالفشل بعد النصر ، وما زال الحوذى بوجهه الصارم وتقاطيعه الصارمة يلوح للرجل بالعشرة جنيهات بسخرية ناظرا اليه كمن يقول : هل تستطيع ؟

وفكر السائق فى هذا العرض وهذا التحدى ... ولكن الرهان من جانب واحد ... انه سيكسب عشرة جنيهات أو لا يخسر شيئا .

وهمس رجل خبيث من ركاب الدرجة الأولى فى أذن السائق :

ـ راهنه ... هل من المعقول أن يسبق الحصان ترام . يبدو أن هذه الجنيهات تحيره . أرحنا منها ومنه والنبى .

الحوذى ما زال يمسك العشرة جنيهات ويلوح بها للسائق والى الناس ثم يشد اللجام فيزأر عنتر ، كمن يقول :

ـ هل يتجرأ أحد على أن يسبقنى ؟ أنا عنتر ... عنتر المغوار .

ولكن الورقة ـ أقصد العشرة جنيهات ـ ما زالت تهتز أمام عين السائق فتزغللها فيقول على الفور :

ـ قبلت السباق أيها المغرور ... انك ستخسر نقودك !

ولكن السائق كان قد أعجب بهذا العرض لأول وهلة ، لولا أنه كان خجلا لأن حتمية الموقف كان تضطره أن يظهر هو الآخر ورقة مثلها حتى يكون الميزان متكافئا . الا أنه استعبط وتظاهر أنه يريد أن يعطى بهذا السباق للحوذى درسا فى الأدب . فلكل شىء حدود ... ولكن العشرة جنيهات ما زالت تتلألأ فى عينيه .

هكذا بدأ السباق ، سباق حافل .. صمم فيه كلاهما على النصر .

وقف السائق على أهبة الاستعداد منتظرا ساعة الصفر . وكان فى عينى الحوذى شىء غير عادى ... بريق غريب فيه عزم وفيه ثقة ، ثقة فى نفسه وفى عنتر . فعنتر حتى يومنا هذا لا يدانيه أحد من الخيل فى صولته ولا فى قوته ... ومع أنه كتب عليه الآن أن يجر العربات ويحمل الاثقال ... ولكنه كان فى يوم ما ، ذا شهرة لا حد لها . انه عنتر نفسه بلحمه ودمه لم يتغير وان تغير الزمن ، انه عنتر نفسه الذى هز العروش فى ميادين سباق الخيل فى يوم ما ، اذن ... له أن يقول هو وصاحبه :

ـ ويحك أيها الترام الحديدى ! ويحك أيها السائق !

وكان الترام عربتين ويحمل ثلاث فئات من الناس . ركاب الدرجة الأولى ثم الثانية وحجرة السيدات . أما ركاب الدرجة الاولى فقد كانوا من اللحظة الأولى

مقتنعين بفوز الترام ، متمنين أن يكسب السائق الرهان ويخسر الحوذى كل شىء ، وقد أخذوا على عاتقهم مهمة تشجيع السائق . وركاب الدرجة الثانية وهم جمهرة الركاب فقد أيدوا عاطفيا الحوذى وهو فى رأيهم :

ـ رجل شهم وجدع وقلما يوجد مثله .

ولذلك أخذوا فى تهليلهم له وتشجيعهم اياه . وبالأخص بعد ما عرفوا أن هذا الحصان هو عنتر الذى هز بنفسه عروش سباق الخيل وإن تغير الزمن . أما الفئة الثالثة وهى حجرة السيدات ... فلم يفعلن شيئا ... بل وضعن أيديهن على قلوبهن ، متعجبات من الرجال وخفة عقولهم ، متمنيات لو استطعن أن يصلن بالسلامة !

ولكن أى سلامة فى موكب مثل هذا ؟!

وفى هذا الوضع الجديد وقد ظهر لكل من الحوذى والسائق مشجعون أصبح الموضوع أكثر من تحدى وأصبحت الحكاية مسألة كرامة ... كرامة تستحق الجلد والصبر والنجاح .

جاءت ساعة الصفر ... وقد كتم كلاهما أنفاسه . السائق يدير المفتاح الثالث ... والترام ينطلق . الحوزى يشد اللجام والحصان يعدو والموقف يتذبذب والركاب أنفاسهم محبوسة وحواسهم يقظة ، ولكنهم جميعا فى أعينهم التصميم وفى باطن عقولهم النصر.

النصر هو الصوت ، هو صوت صهيل الفرس وجلجلة عجلات الترام ، النصر هو الأمل . المحطة الأولى تشهد توازن القوى ، فلم يستطع الحصان ولا الترام أن يحققا أى تقدم ... الواحد على الآخر . ولكن فى بداية المحطة الثانية استطاع الحصان أن يحقق فوزا طفيفا على الترام ، فهاج ركاب الدرجة الثانية وماجوا وشجعوا صاحبهم الحوذى وصفقوا له ... وكان عنتر قد فهم مغزى الهتاف فانطلق يعدو . واغتاظ السائق واحتقن وجهه وبغليل الحقد انطلق هو الآخر كمن يريد أن يسبق الزمن ولكن الحوذى ما زال يبتسم وينظر وينظر بعيدا .. بعيدا نحو الهدف . وفى الحال أشعل ركاب الدرجة الثانية سجائرهم وقد ارتاحت أنفاسهم، واشتعل ركاب الدرجة الأولى سجائرهم محاولين أن يهدئوا من أعصابهم

وجاءت المحطة التالية وما زال الحصان يسرع ... وكان تقدمه ما زال طفيفا والموقف كما هو ... ومع بداية المحطة الثالثة استطاع أن يلحق الترام بالحصان، سرعان ما بدا الغضب على ركاب الدرجة الثانية وترقب ركاب الدرجة الأولى الموقف بحذر ... وابتسامة تهفو على شفاههم تحاول أن تجد لها طريقا وما زالت السيدات واضعات أيديهن على قلوبهن ... آه يا لخفة عقول الرجال !

ومع نهاية المحطة الثالثة كان السائق قد استطاع أن يحقق تقدما طفيفا جدا ... لم يتبينه الا ركاب الدرجة الأولى.

وجاءت المحطة التالية لتشهد تقدم الترام على أبو العناتير ، فصاح ركاب الدرجة الثانية مستنكرين واطمأن ركاب الدرجة الأولى وأخذوا يبتسمون ابتسامات متفرقة هنا وهناك . وكان كل منهم يهنىء صاحبه ... ثم قال أحدهم : ـ

ـ أنا فى عجب من أمر هذا الحوذى ... كيف يسبق الترام ؟

هل سنرجع للوراء ثانية ؟! تصوروا أنه راهن على عشرة جنيهات ؟

وأخذ ركاب الدرجة الأولى ينظرون الى جمهرة الركاب باشمئزاز وقد لاحظ الآخرون ذلك ، فاغتاظوا وأخذوا يقرعون ويسبون صاحبهم الحوذى مكررين عبارات مختلفة ... لا بد وأن تفوز ... انظر الى ركاب الدرجة الأولى ... يجب الا أن يشمتوا بنا ... يجب أن تفوز

عنه ... اسرع ... اجرى والله معك ... لن يسبقك هذا الترام ، لا لن يسبقك .

وأحس الحوذى بالخطر الذى ألم به والمسئولية التى القيت عليه ، فانفعل وجالت بخاطره أفكار شتى : ـ كيف يمكن أن يحدث هـــذا ؟ كيف ؟ وأخذ يخاطب عنتر ولكن الترام ما زال يسبق، الترام يجـــرى وركاب الدرجـة الاولى يبتسمون ، نعم يبتسمون ... وها هو الترام يسبقك بنصف محطة يا عنتر . ويكفهر وجه الحوذى فى هذه الانفعالات المتوالية وتنتابه أحاسيس شتى ... فلا يحس بشىء ... الجمهور يناديه والترام يتقدم والسوط بيديه . فأمسك السوط ولدغ به الحصان لدغات هستيرية محمومة مجنونة . وأخذ يلدغ الحصان ويلدغه والجمهور يراقب ـ الجمهـــور يخاف الفشل ـ ، الجمهور فاغر فاه ... ولكن ركاب الدرجة الاولى ما زالوا يبتسمون ... يضـــحكون ، يشيرون على ركاب الدرجة الثانية فى سخرية ، وحجرة السيدات ما زالت كمـــا هى ... والله معكن أيتها الســـيدات ... فما زالت أيديهن على قلوبهن .

المحطات تتوالى والترام يسبق الحصان بمحطة بأكملها ... الجمهور يثـور ، يغضـــب ، يسب ، يلعن ... ولكن ما الفائدة ؟ ... ، فالترام ما زال يسبق وركاب الدرجـــة الأولى يبتســـمون ، يضحكون ، يشعلون سجائرهم . وينظر الحوذى الى نفسه والسوط ما زال بيده وينظر الى الحصـــان ويحاول أن يلدغه ... ولكنه يرى ... يرى عنتر يدمع فيخاطبه :

ـ لقد ضربتك ... لك الحق عنتر !

ثم ينظر الى عينى عنتر وعنتر ما زال يدمع ، ويدمع هـــو الآخر مع عنتر . والترام يسرع ، والجمهور يثور ، يضطرب يضج ، الجمهور يريد النصر ، الجمهـور يتمنى النصر ، ولكن الترام يسرع ... يسرع مع أنه يسير على قضيبين)

وأنت يا عنتر أتتأخر ؟

ويرمى الحوذى السوط من يده وينظر الى عنتر ، وعنتر ما زال يدمع ، يسرع . ويأخذ الحوذى فى ارضاء عنتر فهـــو يلاطفه ويذكره بماضيه وبطولته .

أنت عنتر ... عنتر صاحب البطولات والكرامـــات ... لا بد وأن تفـوز ! ... أيقهرك ذلك الحديد ؟ الترام حديد يا عنتر . وعنتر ينظـر الى صـــاحبه وما زالت عيناه تدمع ويستمر صـاحبه فى مخاطبته ومصالحته :

ـ تعـرف يا عنتر لو فزت !؟ ... سيكون هذا يومك . ســـتصبح أنت البطل . سأزوجك عبلة ، ـ وعبلة هذه لم تكن الا فرسة الحاج شلبية جارهم فى الســـكن وزميلهم فى الحرفة ـ اليوم يا عنتر سيكون ليلة عرسك ، عرســك يا عنتر ، سأحضر لك أقماع السكر مثل زمان يا عنتر . ستصبح أبو العناتير . تعرف يا عنتر ... ستأتى اليوم جميع الخيول لترقص فى عرسك على أنغـــام الطبل البلدى وسترقص معها أنت الآخر يا عنتر الحوذى يحابى عنتر وعنتر يفهم كلام صاحبه ولكن الترام يهرع ، يسرع فى سرعة منتظمة وبدون احساس .

وفى وسط زئير الجمهور وصـــيحاته وهذا الاحساس الجديد الذى ملأ نفس عنتر وقلبه ، أخذ عنتر يعدو ، يجـرى وصيحات الجمهـــور تتعالى ، تتعالى ، تتوالى ، الجمهور يهتف ، وركاب الدرجة الأولى ثائرون ... أصـــواتهم تعلو ،

يضجون • الكل متيقظ ، منتبه ، الناس كلها تتكلم ، أصوات تاتى من بعيد ومن قريب ، أصوات خفيضة وأصوات عالية ورنين أصوات يختلط مع صوت صهيل الجواد وصـــوت عجلات الترام وما فى الشارع من ضوضاء • أصوات مختلطة من الدرجة الأولى والثانية ومن حجـرة السيدات ••• يسمع منها فى بعـض الأحيان :

ـ آه لو انقطع التيار الكهربائى •

ـ سينتهى السباق •

ـ لا لن ينتهى !

ـ ربنا يوصلنا بالسلامة :

ـ كيف يسبق حصان تراما ؟

ـ سيسبق •

ـ لا لن يسبق •

ـ أننى أستطيع أن أشد السنجة •

ـ كيف ؟ لا ! ســـينتهى كل شىء بهذه الطريقة الهمجية •

ـ لم تفعل كل هذا ؟ ••• سيفوز الحصان حتما •

ـ أنا لا أسمح لسباق بأن يكون بمثل هذه الفوضى •

ـ اننى متأكد من كل شىء ••• أمعك عود ثقاب ؟

ـ ماذا ستفعل به بحق الشيطان ؟ أجننت أنت الآخر ؟

ـ سأشعل سيجارة ••• ماذا جرى يا أخى ؟!

ـ ماذا جرى لكم •

ـ آه لخفة عقول الرجال !

الحصان ما زال يعدو ، يعدو مثـــل الريح ، والصـــيحات تعلو ، تعلو من هنـــا وهنـــاك ، وعنتر ينهب الأرض . والمسافة بينه وبين الترام تقصر ، تقترب وعنتر يتقدم ، يجرى ، لا يبالى وصاحبه لا يبالى ••• ولكن السائق وجهه محتقن وجمهرة يشعلون سجائرهم ، فالسباق أصبح لهم ، لهم وحدهم ، ولكن السيدات مازلن واضعات أيديهن على قلوبهن •

ويدفع الغضب والحقد الســـائق مرة أخرى ••• فيندفع ويندفع ولكن الترام سرعته لها مدى • الترام مقيد من أسفل ومن أعلى • الترام يسير على قضيبين • انها فرصتك يا عنتر ••• انك غير مقيد انك احســـاس ، شعور ، نبض ••• وسرعتك ليس لها مدى • أنت حر • أنت حى ، كائن حى ، ولكن عنتر مازال متساويا مع الترام • خط النهـــاية يقترب وما زال الاثنان متســـاويين ، ويخاف ركاب الدرجة الثانية من الفشل ويزداد نبض ركاب الدرجة الأولى ولكن صيحات الجمهور تتعالى ، أصداؤهـــا تتعالى ورنينها يتوالى ، يتوالى فى اذنى الحصان وصاحبه ، والحصان كائن حى، شعور ، فيندفع الحصان فى هســـتيرية اندفاعة لا حد لها ••• يحقق بها الفوز ويستحق اللقب ••• ولكن الســـيدات مازلن واضعات أيديهن على قلوبهن •

وفى غمرة هـــذا الانتصار خر عنتر مغشيا عليه ، فساد المكان صمت طويل والتف حوله ركاب الترام جميعـا وقد شلوا عن الحركة ، ووجوههم العابسـة المكفهرة الواجمة لا تعبر عن أدنى شىء وأفواههم فاغرة • ولكن الحوذى سرعان ما يقترب من صـاحبه ويجلس بجواره يداعبه ويلاطفه ويكرر له الوعود • وفى وسط هـــذا الوجوم يفتح عنتر عينيه فتحة ليست بالقوية وليست بالضعيفة ••• فتخرج بعـض الأفواه زفيرا قويا وتشهق بعض الأفواه شـــهيقا قويا ، وترتسم على الوجوه العابسـة تعبيرات تختلف فى احساساتها ••• وما زال البطل يفتح عينيه ويغمضهما محـــاولا استرداد أنفاسه وبأســـه مرة أخرى والحوذى صاحبه يرنم فى سره :

ـ حقا ••• انه شعور ، احساس ، نبض ، حى ، كائن حى ! حى ! حى ! •